

أولويات في دراسة العلوم الإنسانية

السيد جعفر المرتضى العاملي

يتعرض الكاتب في مقاله لأولويات في دراسة العلوم الإنسانية ويورد بأدلة عديدة تقضي بأن العلوم الإنسانية رغم محاولة البعض على أنها لا يمكن اعتبارها علوماً بالمعنى الدقيق للكلمة لأنها محض تعاليم، لا بد من قبولها، والتسليم بها دون تمحيص وتجربة علوم قيمة علمية. ويردّ الكاتب ماسجّله البعض في هذا المجال على العلوم الإنسانية، ويقول إن مصدر المعرفة في تلكم العلوم هو الوحي الذي ينتهي إلى الله - سبحانه وتعالى - فمن الطبيعي أن تختلف ماهيتها عن سائر العلوم الحسية المعتمدة على المشاهدة والملاحظة والمقارنة التي توجب من خلال تراكم الإحتتالات فيها درجة من الظنّ الذي لا يفيد اليقين.

ويدعو الكاتب في مقاله أن نركّز في دراستنا على الأمور التالية:
 أولاً: أن نطرح المفاهيم العقائدية، وكلّ العلوم الإنسانية بطريقة تجعلها مفيدة في بناء شخصية الإنسان بكلّ أبعادها، وخصائصها، ثمّ توجهاتها وطموحاتها.
 ثانياً: دراسة النصوص القرآنية والروايات بنظرة جديدة، وعقلية جديدة.
 ثالثاً: التأمل في الشكل والمضمون.
 رابعاً: أن التربية والتعليم توأمان.
 خامساً: هيمنة السياسات على الشأن العلمي؛ إذ يؤكد الكاتب في هذا القسم أن يتعد المتبع في العلوم الإنسانية عن أهواء السلطة لا سيما إن كانت ضالّة.
 سادساً: العلم في مجال التخطيط والتنفيذ ضرورة لا مندوحة منها.
 وأخيراً يركّز الكاتب على دور البواعث الفردية في الإنجاز العلمي.

و دون أن يكون للتجربة الحسية دور في معرفة غثها من سمينها
 وتميز صحيحها من سقيمها.
 ونقول:
 إن هذا الكلام ليس له قيمة علمية، ولا يستند إلى ركن

التمهيد
 قد يحلو للبعض أن يدّعي: أن العلوم الانسانية لدى
 المسلمين، لا يمكن اعتبارها علوماً بالمعنى الدقيق للكلمة: لأنها
 محض تعاليم لا بد منها، والتسليم بها دون أن تخضع للمناقشة،

وذلك لأن الأمور العقائدية لا تختصر بانسان دون انسان، ولا بفريق من الناس دون فريق، وإنما هي شأن يخص كل فرد من بني الانسان ولا يمكن لاحد أن يدعي تفرده في ذلك، أو أولويته على غيره فيه.

ومن جهة أخرى فإن الامور العقائدية ليست محض حقائق علمية جافة ولا مجرد معادلات تشبه المعادلات الرياضية، أو الفيزيائية أو غيرها، يمكن لكل انسان أن يحتفظ بها في ذاكرته، أو يودعها في كتاب، أو في آلة التسجيل، أو في الكامبيوتر ليرجع إليها، ويستفيد منها وقت الحاجة.

كما أنها ليست مجرد حالة فكرية، أو تصورية خالصة، ومنفصلة عن سائر شؤون الانسان وحالاته.

وإنما هي شأن حياتي عملي له حساسيته المتناهية، وله صفة الشمولية أيضاً، حيث إنه يمس شخصية كل فرد من الناس وخصائصه وعلامته وجدانه، ويتصل بمشاعره وعواطفه ثم هو ينعكس على صعيد الواقع طاقة جبارة وموقفاً رسالياً وسلوكاً رائداً، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى الجماعة. ما نريده:

وهذا الذي ذكرناه من الشمولية والحساسية المتناهية يحتم علينا التعرض للشأن العقائدي على أنه علم ينبض بالحياة ويزخر بالحركة ويتصل بشخصية الانسان بكل أبعادها ومختلف مكوناتها، ثم على ما تتعاطاه وتتعامل معه وتتصل به أو يتصل بها، من قريب، أو من بعيد.

فما نريده إذن... هو أن نبحث عن تلك العقائد التي تربط الانسان بكل ما حوله، ليستفيد منه في مجال تغذية فكره ووعيه ومشاعره وعواطفه، ثم في مجال تعامله وحركته وسلوكه ومواقفه.

عناصر لا بد من توفرها

وما تقدم يحتم التركيز على الامور التالية:

الأول: أن نطرح المفاهيم العقائدية وكل العلوم الانسانية، بطريقة نجعلها مفيدة في بناء شخصية الانسان بكل أبعادها، وحالاتها، وخصائصها ثم توجهاتها وطموحاتها ولينعكس ذلك - من ثم - على حياته بكل ما لها من شؤون، وما يتصل بها أو تتصل وتلتقي به، ولتكن شخصيته في تلوناتها وفي صفاتها رسالية رائدة، وليكون للآخرين من ثم أمثلة، وأسوة وقودة،

وثيق، وذلك لأن هذه العلوم، وإن كانت لدى المسلمين، ليست على حد علم الفيزياء أو الرياضيات مثلاً بحكم ما لها من طبيعة خاصة، ولكنها لا تقل عنها من حيث قوة اعتبارها وقيمتها العلمية وإمكان الاعتماد على ما رسم فيها من ضوابط وقرر من قوانين. وذلك لأن العلوم الانسانية - كما هو الظاهر من اسمها - إنما تعالج قضايا الانسان الفردية والجماعية وتتدخل في بناء شخصيته الانسانية والاجتماعية، وتساهم في رفع مستواه، وتذلل العقبات أمامه وحل المشكلات التي تعترض طريقه في مسيرته الحياتية التكاملية.

إذا كان مصدر المعرفة في هذه العلوم هو الوحي الذي ينتهي الى الله سبحانه خالق كل شيء ومدبره والمطلع على حقيقة الانسان، ثم على كل الحقائق والدقائق في هذا الكون المحيط به وهو الأعرف بخصوصياته ومزاياه، وبكل علاقاته وارتباطاته عما ومن في الوجود إذا كان كذلك فان هذه العلوم الانسانية الصادرة عنه قادرة على تقديم التفسيرات الحقيقية لكل ظاهرة ولكل حالة، ثم تقديم الحلول والضوابط الدقيقة والصحيحة لكل مشكلة ولكل حركة مهما كانت.

وعلى هذا الأساس فان تلك العلوم التي، تعتمد في رسم ضوابطها وتقديم نظرياتها أسلوب التجربة الحسية، ثم الملاحظة والمقارنة، التي توجب من خلال تراكم الاحتمالات فيها درجة من الظن الذي قد يرتقي أحياناً الى الاطمينان المهتد دائماً بالزوال تبعاً لتقدم العلم، وتوفر وسائله واكتشاف المزيد من الحالات ذات الخصوصيات المتميزة - نعم إن هذه العلوم - تصبح في مهبّ الريح، حينما يتطرق الشك إلى معظم ماتقدمها من ضوابط وحلول، وحين تصبح عاجزة عن الاسهام في ترسيم صورة واقعية لحاضر الانسان، الامر الذي يعني أنها أعظم فشلاً وأكثر عجزاً عن رسم صورة لماضي، والتخطيط لمستقبله بصورة دقيقة وصحيحة.

العقائد والحياة:

ونحن إذا رجعنا إلى العلوم الانسانية الاسلامية من أجل تحديد العلوم التي لها أولوية التقدم في مجال البحث والعناية حيث لا بد من تحديد هذه الأولويات، لسبب أو لآخر فأننا نجد: أن شأن العقائدي يقف في أعلى الهرم في هذا المجال،

سواء فيما يرتبط بالشكل، أو فيما يتعلق بالمضمون فأما بالنسبة ل :

الأمر الأول: وهو ما يرتبط بالشكل، فإنه لا بدّ من تقديم حقائق العقيدة باللّغة التي يفهمونها بكل فناتهم وطبقاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم، وهي لغة القرآن. وتعبير أوضح: لغة الحياة...

وليس باللّغة التي لا يفهمها إلاّ طبقة من الناس، التي اتخذت لنفسها لغة خاصة بها. لها اصطلاحاتها المعنية التي تتعامل بها.

ومن هنا... فإنّ التعرف على أسلوب القرآن في طرح القضايا العقائدية والاستدلال عليها سواء في مجال الإقناع والتحدي. أو في مجال تربية الناس عليها يقع على رأس الهرم في سلّم الأولويات.

فلا بدّ إذن من بذل الجهد في استكشاف الطريقة القرآنية في إيصال المفهوم القرآني إلى الناس، وربطهم به، وليصبح طاقة جبارة يزرع بها كيان الانسان المسلم، تدل لها الصعاب، وتصنع ما هو أشبه بالمعجزات.

ولعلّ أول ملاحظة يمكن تسجيلها في هذا السياق هي: أن القرآن يعتمد أسلوب إرجاع الانسان إلى فطرته، ومخاطبة وجدانه، وإثارة ضميره من خلال تحويل الشأن العقائدي إلى شأن حياتي واقعي، يلامس كل حركة الانسان، ويتصل بكل اهتماماته الأساسية. وليتحول الشأن العقائدي من حالة محض فكرية وتصورية ومعادلة رياضية إلى حالة وجدانية وضميرية ومن مقتضيات الفطرة وشؤونها ومن الضرورات الحياتية بالدرجة الأولى... وأما بالنسبة إلى:

الأمر الثاني: هو ما يرتبط بالمضمون، فقد اتضح الأمر فيه ممّا ذكرناه آنفاً حيث إنّ ما يهمننا البحث عنه يقع على قسمين: أحدهما: هو تلك الحقائق والدقائق العالية، التي تهتم صنفاً خاصاً من الناس، يرمي إلى التعمق في البحوث العقائدية، والغور في أعماقها، للوصول إلى الكنوز الخفية، والحقائق المكنونة...

وهذا الصنف من البحوث ومن الباحثين، ممّا لا يمكن الاستغناء عنه وعنهم بالنسبة لأمة تريد أن تثري فكرها وتؤكد أصالتها، مادام أن هؤلاء الثلاثة الدور الرئيسي في توجيه حركة

أما إذا كانت دراسة هذه العلوم على حدّ دراسة علم الرياضيات مثلاً، فإنّ هذا الانسان حتى وهو في قمة نشاطه العلمي، واكتشافه للمزيد من الحقائق والدقائق، لسوف يبحث عن مكوّنات شخصيته الانسانية في أمور عفوية، وغير مدروسة ولا متناسقة ولا هي مستندة إلى ركن وثيق وبرهان أو دليل وتصبح شخصيته التقاطعية من هنا وهناك، ممّا يصادفه من حالات، ويواجهه من أزمت ومشكلات، ومما يمر به من أفكار ومفاهيم وعادات، في البيت، وفي الشارع، وفي المدرسة، وفي خلال صداقاته، وقراءاته، ومشاهداته.

الثاني: إعادة قراءة للنصوص القرآنية، وللروايات المنقولة عن النبيّ، صلى الله عليه وآله، وعن الأئمة المعصومين، عليهم السلام، بنظرة جديدة وعقلية جديدة، وبطريقة علمية جديدة أيضاً، تتسجم مع التوجّهات، والدوافع، والأهداف العامة التي ألمحنا إليها آنفاً.

وذلك لأنّ المشاهد في قراءتنا الفعلية للنصوص - أن الأكثر من العلماء والمحققين يعملون على حدّ أكبر قدر ممكن من النصوص، لتفهم بطريقة معينة، ومن زاوية خاصة ومحدودة بحسب ما يريدون التدليل عليه، وتأييده، أو الإزراء عليه وتفنيده، من دون أن يتعرضوا لساثر ما تتعرض له، أو ترمي إليه.

فهم إنّما يعالجون قضايا تهمّم ويتعرضون للبحث في مجالات، لا يعرفها، ولا يدركها إلاّ القليل من الناس، الذين نهجوا منهجهم ونسجوا على منوالهم.

الثالث: أنّه ليس من الضروري أن نصرف الكثير من الوقت والجهد في البحث عن فرق بادت، وأقاويل بأن زيغها وخطئها، وكثير منها أشبه ما يكون بالتحريصات والأوهام، ولم يبق ثمة من يؤمن بها أو يعيرها أدنى اهتمام. كما أنّها لاتمسّ واقع الناس، ولا تتصل بحياتهم، ولا تعالج أيّاً من مشاكلهم، التي يعانون منها.

في الشكل والمضمون:

وبعد الوصول إلى الأهداف المشار إليها آنفاً، وتحقيق النتائج المتوخاة على الصعيد الإحصائي فإنه لا بدّ في المرحلة التالية، من ملاحظة الضوابط الصحيحة في مجال العرض،

ينظر إلى أسلوبها في معالجة الشأن العقائدي: أنظر كيف نصرف الآيات: ولا شك في أن هذا الطلب إنما يهدف إلى الحث على اتخاذ ذلك طريقة ومنطلقاً في عملنا التربوي في هذا المجال حيث إنه يريد منا أن نتعلم كيفية إيصال المفاهيم العقائدية إلى القلوب وكيفية فتح الأبصار والاسماع والعقول عليها.

٢ - إنها قد ربطت الشأن العقائدي بالشأن الحياتي، الذي يهتم الإنسان ويعنيه أكثر من شيء آخر، وقد ذكرتهم بأهمية السكون للإنسان وأهمية الضياء له، كما أنها قد ركزت على تذكير الإنسان بأنه يعجز عن مواجهة أمور لا يملك المعرفة ولا القدرات الكافية التي تمكنه من السيطرة عليها ومواجهتها، وبأهمية الضوابط التي تهيم على المجتمع الإنساني وتفرض عليه التعاون، وتمنعه من التعدي، الأمر الذي لولاه لم يمكنه أن يرسم صورة واضحة لمسيرته في الحياة، ولا لمستقبله ومصيره من الأساس.

٣ - إن هذه الآيات قد ركزت على الأمور الثلاثة التالية:

ألف : الفقه والتعقل والفهم: لعلمهم يفقهون.

ب : السمع: أفلا تسمعون؟

ج : البصر: أفلا تبصرون؟

وقد ركزت آيات أخرى على هذه الثلاثة أيضاً، مثل قوله

تعالى: ﴿صَمَّ بكم عمي، فهم لا يعقلون﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، وهم أعين لا يبصرون

بها، وهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ،

أولئك هم الغافلون﴾^(٤).

وما نريد التذكير به هنا هو: أنه تعالى في هذه الآية قد قدّم

فقه القلوب على بصر الأعين، وسماح الآذان. وفي ذلك الماح

- على ما يظهر - إلى أن ادراك الأمور العقائدية، إنما هو

بالدرجة الأولى من مهات ووظائف القلوب، التي تفقه الامور

إذا تفكرت فيها، حينما تكون من شؤون العقل ومن سنخه.

ولكن ادراكها لا ينحصر بذلك، فلو أن الإنسان لم يرد أن

يجهد نفسه في التفكير وترتيب القضايا، والانتهاه إلى النتائج

بالتأمل العقلي، وفقه القلب فان ثمة وسائل أخرى يمكن

بواسطتها أيضاً الوصول إلى تلك الحقائق العقائدية، وذلك مثل

السمع والبصر، وغير ذلك من الوسائل التي يمكن بواسطتها

اكتساب الأشياء وإيصالها إلى القوة العاقلة لتتصرف فيها،

الفكر على مستوى الكوادر الفاعلة، التي تتولى مهمة التوجيه المباشر والفاعل على أرض الواقع في الأمة، فلا بدّ من توفير الامكانيات الكافية لهؤلاء ليستمروا في بحوثهم وفي تحقيقاتهم بصورة مرضية فاعلة.

الثاني: هناك معانٍ عقائدية يفترض بالناس كل الناس أن يعيشوها ويعوها ويتفاعلوا معها، لتؤثر من ثم في حياتهم العلمية، وفي كل شؤونهم وحالاتهم.

وهي معانٍ لاتدخل في نطاق اهتمامات الصنف الأول بصورة أساسية، ولا يوليها كبير عناية، مادام أنه قد اتجه في فكره وفي بحوثه إلى نواح لاتلتقي ولاتنسجم معها كثيراً، وهذا القسم هو الذي لازال في مرحلة الصفر، وهو بحاجة ماسة إلى مزيد من الجهد ومزيد من الوقت من القدرات لإعطائه دفعة إلى الأمام، فإنه الأكثر مساساً بحياة الناس، والأكثر تأثيراً على مصيرهم ومستقبلهم، ومن ثمّ فإنه هو الذي يعينهم ويهيمهم أكثر من أي شيء آخر، ولكي نخرج من نطاق النظرية فائناً نشير الى مثال تطبيقي قرآني وآخر تاريخي.

مثال تطبيقي قرآني

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم، فإننا نجد فيه عشرات بل مئات الشواهد على مانقول ونكتفي هنا بعرض أحدها، وهو التالي:

قال الله سبحانه في كتابه الكريم:

﴿قل: من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحرّ تدعونه تضرّعاً

وخفية، لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشاكرين.

قل: الله ينجيكم منها ومن كل كرب، ثمّ أنتم تشركون.

قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم، أو من

تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض، أنظر

كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً

إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياءٍ؟ أفلا تسمعون؟

قل: أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة،

من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون؟!﴾^(٦).

فنجد:

١ - إن هذه الآيات تطلب من الذي توجه له الخطاب: أن

المواجهة للرسالة الالهية إلا بإحداث صدمة قوية بواسطة ما عُرف بـ «المعجزة» من أجل أحداث فجوة، أو فتح نافذة تظل على داخل الانسان، وتنفذ إلى قلبه، وعقله، ووجدانه فيكون ثم الإذعان، والقبول، والتسليم، والنجوع للحق.

وقد لأحدث تلك الصدمة شيئاً، حيث أن قلوبهم قد أصبحت كالحجارة أو اشد قسوة، فيصبح الايمان - والحالة هذه - مجرد استسلام ورضوخ، واستثمار لا أكثر.

ومما تقدم تتضح الإجابة على موضوع الإخبارات الغيبية لأمر المؤمنين (ع) في حربه للخوارج، فان الناس كانوا حينئذ، يعانون من الجهل الذريع، واتباع الهوى، بعد أن قتل أمثالهم وبقي أراذلهم⁽⁵⁾ وفقد عليه السلام، في حربي الجمل وصفين الخلف من أصحابه، الذين كانوا يتلَهف عليهم⁽⁶⁾ حتى لقد قال عليه السلام، لأهل العراق، في نهاية حرب صفين، عن الأشتر رحمه الله:

«لَيْتَ فِيكُمْ مِثْلَهُ اثْنَانِ، لَيْتَ فِيكُمْ مِثْلَهُ وَاحِدٌ»⁽⁷⁾.

كما أن الناس إنما يحاربون اخوانهم وأبناءهم، الذين كانوا يتظاهرون بالعبادة والزهادة مع رفعهم لشعارات براقة وخادعة، من شأنها أن تستخف عقول الناس الذين لم يستفيؤوا بنور العلم، كما استخف فرعون قومه نتيجةً لجهلهم - فقلل من وزن عقولهم، فأطاعوه حتى عبده وكما يزين الشيطان القبيح للانسان وما يظهر له بصورة الحسن، ويعدده ويمنيه حتى يوقعه فيه، ولو كان لديه آتارة من علم لعرف الزائف من غيره وميز الحسن من القبيح، ولعرف الشعار وخلقيات الشعار ولعرف الحق منه من الباطل.

فكان لابد من مواجهة حالة التردد والشك، والصدود عن الحق بأسلوب إحداث الهزة الوجدانية والضميرية، اعتياداً على المنطلقات العامة في ما يرتبط بالايمان بالغيب، هذه الصدمات التي ظهرت على شكل اخبارات غيبية يشاهد الناس تحققها بأم أعينهم.

ولكن من الواضح أن هذه الصدمات لن يدوم أثرها طويلاً، فلا بد من ملاحقتها بالتوعية والتنقيف وبت المعرفة في الناس، ليكون ذلك ضماناً لبقاء القناعات وتجديدها في عقل الانسان وفكره ووجدانه وقد رأينا أن بني اسرائيل لم تجف أقدامهم من ماء البحر الذي مشوا عليه بصورة اعجازية، حتى قالوا

وتستفيد منها في مجال الفكر والاستنتاج، حيث يكون ثمة ضرورة لإثراء الفكر بالعينيات بما لها من وجود عيني في مراحل التحقيق.

مثال تطبيقي تاريخي

وإذا رجعنا إلى التاريخ، فإننا نجد فيه أيضاً ما يفيد في تأكيد ذلك حيث إننا حينما نعالج موضوعاً عقائدياً، كموضوع «المعجزة» مثلاً. فإننا إنما نبحث فيها من جهات محددة، قد لا نجد الفرصة لتجاوز ما إلى غيرها، فنبحث مثلاً هل هي خرق للنظام الكوني أو لا، وهل تختلف عن كرامات الاولياء، وما يصدر عن بعض المرتاضين، أو لا تختلف، وغير ذلك من بحوث يجدها المراجع للكتب الباحثة في هذا الاتجاه ولكننا لانجدهم يتعرضون للإجابة على أبسط وأول سؤال يرد في موضوع المعجزة، ألا وهو التالي:

لماذا يؤمن البعض بالنبي، من دون أن يطلبوا منه معجزة يظهرها مثل علي وخديجة وأبي طالب، وجعفر، أبي ذر، وغيرهم بل إن بعضهم قد آمن به (ص) في اليوم التالي لبعثته، ولكن آخرين لا يؤمنون - لو آمنوا - إلا بعد أن يطلبوا منهم إظهار المعجزات، وقد ضرب قوم موسى الرقم القياسي في هذا المجال. أضف إلى ذلك: أننا نجد: أن إيمان أولئك الذين يؤمنون بلا طلب المعجزة قد جاء أقوى وأعمق، وأصفى، من إيمان أولئك الذين هم من الفريق الآخر، الذين يكون إيمانهم عبارة عن استسلام ورضوخ، وعجز أمام الأمر الواقع فيما يظهر... وفي جانب آخر لهذا السؤال، إننا نلاحظ: أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يحارب الخوارج يكثر من الإخبارات الغيبية بصورة ملفتة للنظر، أمّا في حربي الجمل وصفين وسواهما، فقد كان ذلك منه بنسبة أقل كما يظهر بالمراجعة.

وفي مقام الإجابة على هذا التساؤل لابد من الإلماح إلى حقيقة لها دورها في توضيح سبب هذا الاختلاف الظاهر وهي: أنه حين تُعمى القلوب وتُجعل في قمقم وترفض التفكير في الحقائق الصافية، وتُصم الآذان عن سماع صوت الحق، وتُعمى الأبصار عن النظر إلى الآيات الباهرة، والحقائق الظاهرة، فلا يبقى مجال لإيصال صدى الحق إلى القلب، والحصول على حالة الإذعان، والتخلي عن موقف المعاند والرافض في خطة

قد نجحت إلى حد كبير في تربية الانسان في الانسانية إلى جانب منجزاتها على صعيد بناء شخصيته العلمية والثقافية، نجاحها في علم الفقه والتفسير والفلسفة، والمنطق، والاصول وغير ذلك.

فكما أنها تقدّم للأمة الرجل الفقيه، العالم الفيلسوف والمورخ الخ... فإنها أيضاً تقدّمه إنساناً قد تربى تربية صالحة، جعلته في مركز يؤهله لأن يكون إمام جماعة أو قاضياً، أو ما إلى ذلك، حيث ساعدته على أن يتحلّى بالصفات التي تجعله الانسان الثقة، العدل، الذي يتحلّى بالاخلاق الفاضلة والصفات والمزايا الحميدة، وبالعدالة والتقوى...

وهذا بالذات هو ما نطلبه باصرار شديد من سائر المؤسسات العلمية، والتجمعات والمجتمعات الفكرية والثقافية، وعلى رأسها المدارس العامة والجامعات، ولاسيما ما يتصدى منها لتدريس العلوم الانسانية، حيث لا بد لهم من أن يولوا إنسانية الانسان عناية خاصة، ليتخرج الطلاب في نهاية الامر عالماً وانساناً في وقت واحدٍ يتحلّى بالميزات الإلهية، وبالكمالات والفضائل على أساس صحيح وسليم فيطبع بها شخصيته وروحته وسلوكه وينطبع به الآخرون أيضاً، وأن لا يتركوا الطالب يلتقط خصائصه ومفاهيم من هناك، دونما تمحيص أو تأمل...

وليكن النهج الذي رسمناه، هو الرائد في هذا الاتجاه، مادام أنه هو نهج القرآن وهو نهج أصحاب الرسالات، وحملة الأمانة، من الأنبياء وأوصيائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

هيمنة السياسات على الشأن العلمي

وبعد... فإن ماجرى عليه الطلاب في الجامعات في بعض البلاد وحتى الاسلامية فيها ولاسيما في المراحل الأخيرة من دراستهم، وحينما يطلب منهم تقديم رسالة التخرج هو العمل بطريقة تجميع النصوص على شكل بطاقات ثم ترصيفها وصياغتها بحيث تتوافق مع ذوق الهيئة المشرفة وتوجهاتها، أو تنسجم مع السياسات والتوجهات الفكرية هذه أو تلك مع الأخذ بنظر الاعتبار ما ينشأ عن ذلك من تحكيمات لامبررها ولا منطلق يساعدها، ولاسيما إذا كان المطلوب هو خدمة تيار فكري معين، له اهدافه وطموحاته، ثم تحاشي وتجاهل إن لم

لموسى وقد رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم: اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة. هذا من جهة ومن جهة أخرى، وهو ايمان عليّ، وجعفر، وخديجة، وأبي طالب، وأبي ذر وأمثال هؤلاء، الذين لا يمكن اعتبارهم في مصاف الناس العاديين، بل هم من الطراز الأول في الذكاء والوعى، ودقة الملاحظة. فإن ايمان هؤلاء إنما هو نور الحق والحقيقة الباهر، الذي يشرق في القلب ويشع في كيان الانسان، وفي روحه، وهو أيضاً حقيقة الحياة، تتبعث بكل حيويتها وصفائها، لتغمر وجود الانسان، وتتفاعل مع كل ذرة فيه، قال تعالى:

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾⁽⁸⁾.

وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾⁽⁹⁾.

والآيات التي تؤكد على معنى الايمان هذا كثيرة جداً. والقرآن بأساليبه الفطرية والوجدانية، ثم بانتقاله بالشأن العقائدي، من حالة الركود، والتعطيل والجمود، ليصبح أمراً حياتياً وأساسياً، مصيرياً، لا بد للإنسان من أن يوليه أقصى درجات العناية والاهتمام.

إن القرآن حين فعل ذلك، فانه يكون قد جعل الأبصار والاسماع، والقلوب، تتفتح لمستقبل ذلك النور وليغمرها بلألائه ويشع عليها منه ما بهر وستأثر منها بما بطن فضلاً عما بدا وظهر..

وليكون ذلك سبباً في أن تنبض بالحياة ويغمرها الندى والعطاء، ويعمرها الايمان والهدى.

التربية والتعليم توأمان

وإذا أردنا أن نتحدث عن همومنا ومشاكلنا التي نعيشها فعلاً، فأننا نجد أنه رغم السلبات الكثيرة التي نلاحظها في حوزاتنا الدينية العلمية، في قم المشرفة، وفي النجف وغيرها ورغم أننا نفقد فيها التربية العقائدية، على النحو الذي لمسنا ضرورته فيما سبق من مطالب وهي مستغرقة في بحوثها بالطريقة المعهودة والمألوفة لنا... نعم.. رغم ذلك فأننا نجد فيها إيجابية مهمة جداً، نيبب بكل الذين هم في موقع المسؤولية أن يعملوا على نقلها إلى سائر المؤسسات العلمية، ألا وهي أنها

أيضاً، لكي يمكن الاستفادة من طموح الفرد ومن حيويته، ومن خلاقته ولا أقل من عامل الارتباط الروحي والعاطفي بالعمل، وبإنجازه على النحو الأكمل والأفضل.

وبدون ذلك، فأتنا قد نجد أنفسنا في أحيان كثيرة أمام ركاب هائل من النصوص، والمعلومات من دون أن تجد لها ما يحركها في مجال الفكر، والمقارنة والاستنتاج، الآ بمستوى ضعيف وهزيل، وبطريقة غير قادرة على إثراء الفكر وعاجزة عن تحقيق الأهداف الكبرى، التي طالما سعينا إلى تحقيقها، وثمة مجالات ومناح كثيرة لهذا البحث لا نرى أننا نملك الفرصة لاثارتها فنحن نكلها إلى الزمن، فلعل وعسى، وعسى ولعل... وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

١٣ شهر رمضان المبارك ١٤١١هـ.ق -
١٣٦٩/١١/٢٨هـ.ش

جعفر مرتضى العاملي

يكن توهين وتهجين ماعداه، ولكنهم يعالجون سلبيات موقفهم ذلك بما يفرضونه على الطلاب من قيود وحدود تتناول الشكل والاسلوب، وقضايا جانبية اخرى، وذلك بطريقة قوية وحازمة وقاسية بحيث ينصرف هم الطلاب إليها ولا يحرص إلا عليها، مع أن هذا النحو من العمل لا يمكن أن يعتبر انجازاً علمياً، ولا سيّما فيما يرتبط بالعلوم الانسانية، التي تكون - عادة - مطمح أنظار الطامعين، ومحط ومهوى أفئدة طلاب اللبانات وأصحاب المطامع من سياسيين وغيرهم.

فالملطوب إذن هو إبعاد العمل والشأن العلمي عن أن يكون خاضعاً لأي اعتبار خارج إطاره العلمي والتربوي السائر باتجاه العمل الانساني الفاضل والنبيل... مهما كان ذلك مخالفاً لسليقة هذا أو لطموحات وأهداف ذلك أو منسجماً مع التيار، أو غير منسجم معه...

العلم في مجال التخطيط والتنفيذ

ونقول هذا... لأننا ندرك أن الاستفادة من العمل العلمي في مجال التخطيط والتنفيذ ضرورة لا بدّ منها، ولا يحصى عنها، حتى على مستوى الدولة، اذا كانت تريد أن تقوم بدورها الرائد في هداية الأمة، ودعوتها للوصول إلى مدارج الكمال والسعادة في طريق واضح المعالم نحو مستقبل زاهر وبهيج، ومصير رضي ورغيد...

ولكن من الواضح، أنه لكي يكون العمل العلمي أساساً صالحاً في مجال التخطيط والتنفيذ فلا بدّ له من رصيد قوي على مستوى الهيئات العلمية التي ترعاه وتشرف عليه وتوجهه توجيهاً صحيحاً وسليماً دقيقاً، في مجال الاستنتاج وفي مجال الإبلاغ، وفي مجال العمل والتنفيذ، بعيداً عن أي من المؤثرات التي من شأنها أن تعطل حركته، او تعرقلها، أو تنحرف بها عن مسارها الطبيعي القديم.

دور البواعث الفردية في الإنجاز العلمي

وأخيراً فإن العمل العلمي قد بدأ يتخذ منحى مؤسساتياً وجماعياً ونحن وإن كنا نشجع هذا المنحى، ونعتبره تطوراً إيجابياً إلى حد كبير، ولكننا لاننسى أن من واجبنا التذكير بأن من الضروري أن يكون العمل الجماعي ممزوجاً ببواعث فردية

المصادر:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي.
- ٣ - صفين، للمنقري.
- ٤ - الفتوح، لابن أعم.
- ٥ - مصادر نهج البلاغة، لعبد الزهراء الخطيب.
- ٦ - المعيار والموازنة، لأبي عبد الاسكافي.
- ٧ - نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي.

الهوامش:

- ١ - الأنعام ٦٣، ٦٤، ٦٥.
- ٢ - القصص ٧١، ٧٢.
- ٣ - البقرة ١٧١.
- ٤ - الأعراف ١٧٩.
- ٥ - صفين ص ٤٩١، والمعيار والموازنة ص ١٦٤، وشرح النهج للمعتزلي ج ٢ ص ٢١٩.
- ٦ - نهج البلاغة، شرح عبده ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣١، ومصادر نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١، وفيه عن الزمخشري في ربيع الأبرار باب التفاضل والتفاوت. وراجع الفتوح لابن أعم ج ٤ ص ١٠٢.
- ٧ - المعيار والموازنة، ص ١٨٣ - ١٨٤.
- ٨ - الأنعام ١٢٢.
- ٩ - التوبة ٩.